إذا كانت نهضتنا الحديثة الأولى قد قامت على الفكر الليبرالى التوفيقى فإننا لا نملك الآن ترف التخلى عن تقديم فكر نهضوى جديد، ومن هنا لابد أن تتعدد محاولات محاربة عوائق الإبداع

هل نحن فى حاجة لفلسفة عربية جديدة؟

نحن نعيش عصر نهاية الترجمة والنقل عن الغرب

سمير أبوزيد

نشر فى جريدة «أخبار الأدب» بتاريخ ٢٠٠٢/٨/١١ موضوع بعنوان «العرب.. أمة لا تعرف الفلسفة» بما يفهم منه عدم إمكانية «بل واستحالة» قيام فلسفة عربية فى العصر الحالى على الأقل، ومفهوم ظهور فلسفة جديدة فى مجتمع ما يعنى ظهور فكر جديد يستطيع أن يعبر عن «قيم» ذلك المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والعلمية بصورة نظرية مجردة، وبالارتكاز على تطور واضح لمفاهيم نظرية «للعالم» و«العقل» و«الإنسان» و«الوجود» وعلاقتها بالله وبالدين. وبهذا المعنى يكون ذلك الفكر ضرورة لازمة لنهضة الأمة العربية فى المرحلة الثانية من تاريخنا الحديث. ونظراً للتغيرات الكبيرة الحادثة فى الفكر العالمى المعاصر وكذلك فى الفكر العربى المعاصر، تصبح هذه الصياغة الجديدة للقيم المجتمعية والمفاهيم النظرية بمثابة التحدى الأكبر الذى يواجه المفكرين المصريين والعرب فى المرحلة الحالية. وفى هذا الخصوص يمثل الانفتاح المعاصر لمجتمعاتنا المصرية والعربية بفعل «ثورة الأنفوميديا» وزيادة أعداد المثقفين المتخصصين فى فروع المعرفة المختلفة والسهولة النسبية الحالية إلى التعرف على جميع جوانب الفكر الأوروبى المعاصر تقريباً وازدياد «الوعى الذاتى» بالخصوصية الثقافية لمجتمعاتنا العربية وبقيمة الفكر باعتباره معبراً عن المجتمع ووجود مؤسسات علمية عديدة متخصصة فى الفلسفة ووجود الحاجة المجتمعية إلى فكر جديد بعد فشل مشروع النهضة الأولى، تمثل كل هذه العناصر مجتمعة مؤشرات واضحة على توفر كل الظروف التاريخية والحضارية الملائمة لظهور فلسفة عربية جديدة، وهى ظروف لا ينقصها إلا عنصر الإرادة البشرية والرغبة فى تغليب مصلحة الأمة على المصلحة الفردية.

ورغم تقديرى للدور الذى تقوم به جريدة «أخبار الأدب» فى المجال الثقافى وللأستاذة المحررة، وتقديرى أيضاً للأساتذة الدكاترة الكبار أصحاب هذا الرأى، إلا أننى أسمح لنفسى بالاختلاف معهم وعلى أسس فلسفية وحضارية، والاختلاف فى النهاية هو حق فلسفى. وقد تراوحت الآراء الواردة فى هذا الموضوع بين ثلاثة اتجاهات، الأول هو عدم إمكانية وجود «فلسفة عربية» سواءً فى المستقبل القريب أو البعيد لأسباب كامنة فى الفكر العربى ذاته. والثانى أن ظهور «فلسفة» بالمعنى الدقيق فى المجتمع العربى يقتضى وجود شروط مجتمعية عديدة غير محققة مما يجعل ظهور فلسفة عربية أو فيلسوف عربى أمراً غير متوقع. أما الاتجاه الثالث فيرى أننا إذا لم نتشدد فى تحديد مفهوم «فلسفة» فسيكون لدينا بالمعنى الأوسع فلسفة وفلاسفة عرب ابتداءً من عصر النهضة الأولى فى منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن.

والمعيار الصحيح للحكم على إمكانية وجود فلسفة عربية من عدمه هو معيار التطور الحضارى والتاريخى للفكر الإنسانى، فنحن إذا تأملنا وجود فلسفة عربية من عدمه هو معيار التطور الحضارى والتاريخى للفكر الإنسانى، فنحن إذا تأملنا تطور الفكر البشرى سنجد ظاهرتين واضحتين تمام الوضوح، الأولى التفاعل بين الحضارات وانتقال النهضة الحضارية من مجتمع إلى آخر، والثانية توزع المساهمات الحضارية ما بين التطور النظرى والعملى للفكر الإنسانى. وقد قامت الحضارة العربية الإسلامية بحمل مشعل الحضارة لمدة تزيد على سبعمائة عام وكانت مساهمتها الأساسية فى الفكر الإنسانى هى ظهور تطبيقات المنهج العلمى الحديث لأول مرة فى التاريخ. وهو المنهج الذى تم تنظيره بواسطة الحضارة الغربية الحديثة كجزء من إطارها النظرى، وكنتيجة لمقتضيات التطور الحضارى التاريخى. والقول باستحالة ظهور فلسفة عربية حديثة بعد انقطاع حضارى لمدة تزيد على سبعمائة عام هو حكم يتجاهل قوانين التطور الحضارى التى تفرض هذه التحولات، وإلا جاز لنا الحكم باستحالة ظهور فلسفة غربية بعد القرن الثالث عشر لانقطاع الحضارة عن أوروبا لمدة تزيد على تسعمائة عام.

وعلى مستوى التطور الحضارى فى النهضة العربية الحديثة، فنحن نعيش الآن فى نهاية عصر الترجمة والنقل عن الغرب، بعد حوالى مائة وخمسين عاماً من بدء النهضة العربية الأولى، وكما قامت الفلسفة الغربية الحديثة بالنقل والترجمة عن العربية على مدى قرنين أو ثلاثة من الزمان، كانت الأساس فى حركة الإصلاح الدينى ثم عصر النهضة، فإننا أيضاً احتجنا أن نمر بمرحلة الترجمة قبل الوصول إلى مرحلة إبداع فكر جديد، ولذلك لا يمثل قصوراً لدينا عدم ظهور فلاسفة حقيقيين مستقلين فى هذه الفترة، ولا يعنى كذلك أنه من غير الممكن ظهور فلاسفة عرب أو مسلمين. على العكس من ذلك، فإن الأعمال الفلسفية الحالية التى تقوم بتنظير الفكر العربى استناداً على أسس أو مناهج غربية تمثل مرحلة انتقالية ما بين التبعية الكاملة للفكر الغربى وبين الاستقلال التام عنه. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحضارة الغربية المعاصرة تمر بأزمة تعبر عن ذاتها من خلال تحولات فكرية عميقة غير معروف أبعادها وما ستسفر عنه فى المستقبل القريب، وهو ما يشير إلى تراجع سيطرة المركزية الأوروبية، سنجد أن ذلك مثل حافزاً إضافياً بالنسبة لنا للمشاركة بفكرنا الذاتى فى الفكر العالمى.

ومن ناحية ثانية، فإن ما يقال عن انتشار القيود الفكرية وفرض الأغلال التى تعيق انطلاق الفيلسوف وأننا نعيش فترة أكثر إظلاماً ونتراجع إلى الوراء، وعن افتقار المفكر إلى التشجيع من المؤسسات الرسمية.. إلخ، لا يمثل عوائق حقيقية للفيلسوف إذا امتلك إرادة الفكر الحر. وحسبنا فقط أن نقارن هذه الظروف بالظروف التى تعرض لها المفكرون الغربيون فى عصر النهضة من محاكم للتفتيش والإحراق أحياء، والملاحقة والتشهير والسجن، كما حدث مع جاليليو وجيوردانو برونو وإسبينوزا وآخرين، ومع ذلك ظهرت الفلسفة الغربية الحديثة فى تلك الفترة. لذلك فإن الحكم بأن الظروف الحالية تجعل ظهور «فيلسوف عربى» أمراً صعباً فيه قدر من المبالغة والتضخيم للقدر المحدود الحالى من المعوقات ويتجاهل الظروف العديدة الإيجابية القائمة ويتجاهل كذلك دور الإدارة الذاتية للفرد التى هى العامل الأساسى لظهور هذا الفكر، ويتجاهل أيضاً الحاجة الماسة الحالية للمجتمع لظهور فكر نهضة جديد، وكما هو معروف فإن دافع الاحتياج هو أقوى الدوافع نحو الإبداع. ويتجاهل أيضاً أن المجتمع العربى والإسلامى لديه رؤى خاصة لمشكلات الوجود تحتاج إلى تحويلها إلى فكر نظرى فلسفى مجرد.. وهو الأمر الذى ينم عن الإمكانية الكامنة فى الحضارة العربية على تقديم حلول معاصرة لمشكلات مجتمعاتنا تمثل إضافة للفكر الإنسانى، مثلاً سبق أن قدمت الحضارة الإسلامية فى عصورها الأولى حلولاً للمشكلات الفكرية الإنسانية.

إن الأزمة الحضارية التى نحس بها ونعيشها الآن والتى تهدد وجودنا ذاته تفرض علينا الاستمرار فى محاولات النهضة، وإذا كانت محاولة النهضة العربية الأولى التى ارتكزت على الفكر الليبرالى الغربى والتوفيق الشكلى بينه وبين قيم الدين الإسلامى قد فشلت، فإننا لا نملك اليوم ترف التخلى عن محاولة تقديم فكر نهضوى جديد. وإذا كان مشروع النهضة الأولى قد ارتكز على أفكار عديد من المفكرين كمثل الشيخ محمد عبده والأفغانى ولطفى السيد وطه حسين.. إلخ، فإن النهضة الثانية تحتاج أيضاً لأفكار عديدة من المفكرين الذين يفيدون من دروس التجربة الأولى فى التطور والاعتماد على الإبداع الذاتى للفكر الجديد.

ولذلك فبدلاً من الترويج لمقولة عدم قدرتنا على إبداع فكر جديد، يجب علينا فى المرحلة الحالية الترويج لمحاولات الإبداع الفلسفى وإبراز الظروف الإيجابية القائمة الملائمة لذلك الإبداع. وتعزيز الاعتزاز بالذات وبقدرتها على الفكر الحر ومحاربة عوائق الإبداع المختلفة، الأمر الذى يشجع تعدد المحاولات حتى الوصول إلى تيار متكامل له ملامح واضحة، ترتكز عليه مدارس فنية وأدبية ومذاهب نقد أدبى ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية معبرة عن خصوصياتنا من جهة وعن مشاركتنا فى الفكر العالمى من جهة أخرى.